

آيا صوفيا: قراءة وتحليل للحجاج الإعلامي والديني

أسامة محمد رسلان°

قررت المحكمة الإدارية العليا التركية يوم ١٠ من تموز /يوليو ٢٠٢٠ (Daren Butler 2020) تحويلَ متحف "آيا صوفيا" إلى مسجد اعتبارا من يوم ٢٤ من الشهر ذاته، فاشتد الجدل إعلاميا بين التأييد والمعارضة؛ علما بأن المعارضة لم تقتصر على غير المسلمين، بل أعرب مسلمون كُثر – أفرادا ومؤسسات – عن رفضهم القرار، وتبارى طرفا التأييد والمعارضة في سَوْق الحجج المعضدة لمواقفهم. وافتقر الكثير من حجج الطرفين إلى استجلاء الحقائق التاريخية والمرامي السياسية والتأصيل الديني لإجراء أريد له أن يبدو دينيا باعثا عواطف دينية. وقد لاحظ الباحث كثافة تناول وسائل الإعلام العالمية والمؤسسات والشخصيات الرسمية والدولية لهذه القضية، وتراوح ذلك بين التأييد من المؤسسات الدينية الإسلامية أو الرفض، وبيان منظمة اليونسكو الذي يلوح بتهديد مكانة الأثر التاريخي المدرج في قائمة التراث العالمي حال تغيير وضعه؛ ومن ثم، فإن يقصمي الأطروحة الحالية للقرار وما ترتب عليه من حجاج إعلامي ديني، من منظور علمي موضوعي، يقتضي إيراد: (١) لمحة تاريخية عن الأثر، و(٢) تأصيل ديني للقضية، و (٣) رصد أهم الحجج المؤيدة والمعارضة، و (٤) الأثر القانوني والديني للقرار.

لمحة تاريخية

اختلفت أسماء هذا الأثر التاريخي باختلاف العصور والحضارات؛ إذ استهل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول بناءه ليكون كنيسة عام ٣٢٥ ميلادية بمدينة القسطنطينية، حاضرة بيزنطة يومئذ، وأسماه "ميغالي إكليسيا" (Megale Ekklesia)، ثم تهدم البناء خلال القلاقل الداخلية ليعاد بناؤه عام ٣٢٥ ميلادية، حتى جاء الإمبراطور جستنيان فبنى الكنيسة على الهيئة التي ظلت عليها إلى يومنا هذا ميلادية، حتى جاء الإمبراطور جستنيان فبنى الكنيسة خلال ستة أعوام فحسب (٣٧٥) ميلادية بجهود المهندسيْن أنثيميوس أوف تريليز وإيزيدروس أوف ميليتس اللذين أخرجا كاتدرائية طولية الشكل

آيا صوفيا: قراءة وتحليل للحجاج الإعلامي والديني

[•] مدرس ألسنية القانون ودراسات الترجمة بكلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.



ومبنى مركزيا بأسلوب معماري غير معهود شمل قبة ضخمة بحجم ٣٢ مترا من تحتها أقواس حاملة وتحيط بها قبتان على طرفى المحور الطولى للبناء(١).

ظلت الكاتدرائية لأكثر من ألف عام تحمل اسم "كاتدرائية بطريركية القسطنطينية المسكونية" (Ecumenical Patriarchate 2020)، أي الكنيسة الأهم للطائفة الأرثوذكسية الشرقية، ولم تسلم من أيادي الناهبين من فينيسيا وحملة الفرنجة الرابعة (٢).



الشكل (١) آيا صوفيا بريشة رسام الخرائط الهولندي أدريان ريلاند (١٧١٩) (المصدر: وكالة يورونيوز)

حملت الأيام تغييرا في اسم الكنيسة، فصارت "هاجيا صوفيا" (Hagia Sophia)؛ وهي من العبارة اليونانية (Αγία Σοφία) ذات الأساس المتين في الفكر اللاهوتي المسيحي، وتعني "الحكمة المقدسة" أو "الحكمة الإلهية" (Mainstone 1997). فلما تحولت القسطنطينية إلى "إسلام بول" (أي: مدينة الإسلام) ثم إلى "إسطنبول" على يد الأتراك العثمانيين صار اسم الكاندرائية "آيا صوفيا" (Ayasofya)، وظل هذا الاسم ملازما لها إلى يومنا هذا على الرغم من تحويلها إلى مسجد في ١٤٥٣ ميلادية بقرار السلطان محمد الثاني الذي أمر برفع الأذان في الكاندرائية بعد دخول المدينة، فاتخذها أتباعه المسلمون من بعد ذلك مسجدا (الدمرداش ٢٠١٤). ومع ذلك، ثمة روايات تدور حول أصل التسمية اليونانية "هاجيا صوفيا"، ومنها ما هو مقطوع به رسميا لدى الكنيسة المصرية الأرثوذكسية من نسبة الاسم إلى القديسة "صوفية" المصرية التي ولدت في القرن الثاني الميلادي لأبوين غير مسيحيين في منف (منوف العلا بالمنوفية حاليا)، واعتقت المسيحية وبشرت بها حتى علم بذلك الحاكم أقلوديوس الذي أغراها بالعطايا للتخلى عن دينها،

(١) المرجع السابق.

⁽۲) اختار الباحث هذه التسمية الأصيلة للحملات المعروفة تاريخياً باسم "الحملات الصليبية"، إذ ربأ المسلمون المكتوون بنارها يومئذٍ بأنفسهم وبأبناء الشرق المسيحيين عن نسبة الحملات إلى الصليب بما له من رمزية دينية مقدسة عند المسيحيين. انظر (عمارة ٢٠٠١).



فأبت؛ فقتلها بعد تعذيب وإيلام (يعقوب ١٩٨٦). فما كان من إحدى تابعاتها إلا أن أغرت الجند بمال كثير لتأخذ جثمان القديسة، فلفته في أردية ثمينة وأخفته بمنزلها؛ فانبعث من الجثمان روائح زكية، فلما علم الملك قسطنطين بذلك أمر بنقل جثمانها إلى القسطنطينية وخصه بالكاتدرائية العظيمة "هاجيا صوفيا"، وصارت الكنيسة القبطية المصرية تحتفي بذكرى القديسة في الخامس من توت (يوم مقتلها) من كل عام (١)، أما الرواية الأخرى فهي كما يسردها فريق موقع "دقائق" البحثي:

تشير الكنائس الأخرى التي تحمل اسم آيا صوفيا في الشرق الأوسط إلى شخصية مختلفة مرتبطة بكنيسة آيا صوفيا في صيدنايا السورية، التي يعود تأسيسها إلى عصر الامبراطور يوستتيانوس. وبحسب رواية بطريركية أنطاكية للروم الأرثوذكس، صوفيا المقصودة هنا بنت عائلة شريفة من أنطاكية،آمنت بالمسيحية، وأسمت بناتها الثلاثة بيستس (الإيمان)، وهلبيس (الرجاء)، وأغابي (المحبة)، وانتقلت ببناتها إلى روما، فتحول بيتها إلى مركز للمسيحية، فاستدعاهن الامبراطور أدريانوس، فحاول إغراءهن، وسجنهن، ثم بدأ تعذيبهن، ثم قتلهن واحدة تلو الأخرى أمام عيني أمهن، ثم أطلق سراح الأم، فأخذت أجساد بناتها وأودعتها القبر، وبقيت تصلّى على ضريحهن ثلاث ليال وثلاثة أيام إلى أن لحقت بهن (دقائق ٢٠٢٠).

دخل محمد الثاني القسطنطينية عام ١٤٥٣ بجيوشه، فأمر بصهر أجراس الكنيسة وهدم بعض جدرانها وإقامة مئذنة خشبية لها وطمس جداريات ونقوش فسيفسائية ذات دلالات مسيحية، وأضاف فيها ثريا ومحرابا ومنبرا إيذانا بتصييرها مسجدا، لم تصمد الإضافات المؤقتة، فجاء بايزيد الثاني وأقام المئذنة الحمراء في الركن الجنوبي الشرقي من البناء، ونصب مئذنة بيضاء على الجانب الشمالي الشرقي من المسجد، فيما أقام المئذنتين المتطابقتين في الجهة الغربية سليم الثاني أو مرادُ الثالث كما تشيد المصادر التاريخية بجهود المهندس العثماني الأشهر – سِنان (Encyclopaedia Britannica 2020). مرت قرون والدولة العثمانية في صراع مع الجيران والقوى العالمية الأخرى بدوافع دينية وغير دينية، إلى أن لحقت الهزيمة بالدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ووقعت حاضرتها، إسطنبول، تحت احتلال قوات من جنسيات كثيرة من بينها الفيلق اليوناني الثاني الذي ضم القس إليفتريوس نوفراكيس الذي أقام قداسا في "آيا صوفيا" عام بينها الفيلق اليوناني الثاني الذي ضم القس إليفتريوس نوفراكيس الذي أقام قداسا في "آيا صوفيا" عام العثمانيين إلى المدينة من منتصف الليل، وكأنه يستأنف والمصلون معه القداس الذي قطعه وصول الأتراك العثمانيين إلى المدينة منذ نحو ٥٠٠ سنة، عندها صلى القس مربّما من العهد القديم:

أَمًّا أَنَا فَبِكَثْرُةٍ رَحْمَتِكَ أَدْخُلُ بَيْتَكَ. أَسْجُدُ فِي هَيْكَلِ قُدْسِكَ بِخَوْفِكَ (مزامير ٥: ٧). المجد للأبِ والابن والرُّوح القدس، الآن وكلَّ آن والى دهر الدّاهرين، آمين (Chrysopoulos 2019).

^(۱) المرجع السابق.



بذلك استيقظت العواطف الدينية من سبات، فتصاعدت الدعوات من المسلمين بإخلاص المسجد لصلواتهم، ومن المسيحيين برد الأثر لأصل ما بُنِي له؛ فاتخذ مصطفى كمال أتاتورك قراره عام ١٩٣٤ بتحويل "آيا صوفيا" إلى متحف مع وقف الصلاة فيه، آملا بذلك نزع فتيل الصراع وإقناع العالم بتوجه تركيا العلماني الغربي الجديد بعد إلغاء الخلافة الإسلامية (الكاتب ٢٠٠٨). لم تتوقف أحلام إحياء الماضي ولا العلماني النوظيف السياسي لهذا الأثر الحضاري، فعلى الصعيد الأول يقرر أورلاندو فايجز (Figes 2010) أن رغبات التوظيف السياسي لهذا الأثر الحضاري، فعلى الصعيد الأول يقرر أورلاندو فايجز (حامية بدت أعمال ترميم "آيا صوفيا" تخللها في العام ١٨٤٩ اكتشاف أحد المعماريين السويسريين مطمورات رخامية بدت براقة عندما أميط عنها الركام، وثبت أنها جزء من الكنيسة التي بُني عليها المسجد، فأمر السلطان العثماني حينها باستكمال الكشف، فيما عمد السويسري إلى امبراطور روسيا الذي استشعر حنينا إلى أم الكنائس فحلموا بغزو القسطنطينية وتحويلها إلى عاصمة لروسيا الامبراطورية الأرثوذكسية (Figes 2010). أما على فحلموا بغزو القسطنطينية وتحويلها إلى عاصمة لروسيا الامبراطورية الأرثوذكسية (Figes 2010). أما على العالم، فرانسيس، لزيارة تركيا و "آيا صوفيا"، بل أقام البابا صالاته في المبنى المعروف بالمسجد الأزرق العالم، فرانسيس، لزيارة تركيا و "آيا صوفيا"، بل أقام البابا صالاته في المبنى المتحوف "آيا صوفيا" غير مرة العالم، فرانسيش نكر وقراءة قرآن فيه وبحضوره كما حدث في ٢٠١٧ و٢٠١٧ (Cowen 2014)؛ (Deutsche Welle 2017) (٢٠١٧ وكوني).

التأصيل الديني للقرار

دأب المسلمون منذ عصر صدر الإسلام على سؤال النبي (﴿) ثم صحابته وأصحاب العلم الشرعي عن مدى الشرعية الدينية في أي قرار فردي أو جماعي، ولذلك صداه الإعلامي عندما يخرج المعارض أو المؤيد لقضية ما في وسيلة إعلامية رسمية أو غير رسمية لعرض التأصيل الديني لما يذهب إليه من مواقف. ولمّا كانت القضية موضوع هذه الورقة قضية تخص منشأة دينية ولها تبعات دينية، فإنه يحسن بالمؤيدين وبالمعارضين محاولة التأصيل لمواقفهم تأصيلا شرعيا(^{٣)}. ويزخر القرآن الكريم بالآيات التي تقرر حرية الاعتقاد وتكفل الأمان لغير المسلمين، فالقرآن صريح في أنه ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾

⁽١) الكنيسة الرسمية الروسية هي البطريركية الأرثوذكسية (Russian Orthodox Church 2005).

⁽۲) لا يخفى ما بين أتباع الكاثوليكية والأرثوذكسية من خلاف عقائدي، ولا يخفى أيضًا ما بين تركيا واليونان (الأرثوذكسية) من خلاف تاريخي وحاضر ؛ من هنا تتجلى أهمية الباعث على دعوة بابا الكاثوليك للصلاة في الأثر التاريخي دون أي رأس من رؤوس الكنيسة الأرثوذكسية.

^{(&}lt;sup>۲)</sup> الاستدلال عند المسلمين يكون أولاً من القرآن الكريم، ثم السنة النبوية التي تتنوع بدورها بين السنة القولية، والفعلية، والتقريرية، والوصفية (الطحان ١٩٩٦)؛ ويضاف إلى ذلك مصادر أخرى للتشريع هي الإجماع، وفتوى الصحابي، والقياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة، والعرف فيما لا يخالف النص، والذرائع، والاستصحاب (عطية ٢٠١٨).



(البقرة: ٢٥٦)، ولا يجد غضاضة في تسمية معتقدات بعضها غير سماوي من الأصل وطمأنة أهلها وإرشاد المسلمين إلى كيفية التعامل معهم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ وَإِرشاد المسلمين إلى كيفية التعامل معهم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيُومِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجُرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْمٍ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٢٦)؛ كما يقرر القرآن الكريم أن الاختلاف العقائدي من سنن الله الكونية ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَاَمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاءَ أَفَأَنتَ تُكُرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩)، وأن لكل أتباع عقيدة دور عبادة مصونة لا تُمَس ولو في الحرب، فهي أماكن لذكر الله وإن اختلفت عن مساجد المسلمين ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللّهِ مصونة لا تُمَس ولو في الحرب، فهي أماكن لذكر الله وإن اختلفت عن مساجد المسلمين ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللّهِ النّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج: ٤٠). أما من السنة القولية والفعلية في آن واحد فنجد دليلا في عهد النبي محمد (ﷺ) إلى نصارى نجران، ونصه كما يلى:

ولنجران وحاشيتها، جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم، وأنفسهم، وملّتهم، وغائبهم، وشاهدهم وعشيرتهم، وبِيَعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. لا يُغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته [...] ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقا فبينهم النَصَف غير ظالمين ولا مظلومين [...] وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبي رسل الله، حتى يأتي الله بأمره [...] (حميدالله ١٩٨٥، ١٧٥).

وتأتي "العهدة النبوية" بعهد مشابه حسب الوثيقة التي ما زالت نسختها^(۱) محفوظة بختم النبي— (ﷺ) بكامل كفه الشريفة لدى مكتبة دير سانت كاترين؛ إذ جاء فيها إنه "لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا حبيس من صومعته [...] ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم ولا يدخل شيء من بناء كنائسهم في بناء مسجد ولا في منازل المسلمين [...] يعاونوا على مرمة بيعهم وصوامعهم، ويكون ذلك معونة لهم على دينهم." (Atiya 1955) فالنص النبوي صريح إذًا من حيث النهي عن هدم دور العبادة أو إدخالها في بناء مسجد أو منزل لمسلم، بل كفل العهد لهم معونة من مال المسلمين في إقامة دور عبادتهم وإصلاحها، ويضاف لما سلف أن رواية أخرى من العهد ذاته استُقتحت بعبارة لا يحدها مكان ولا زمن ولا طائفة، هي:

هذا كتاب أمان من الله ورسوله، للذين أوتوا الكتاب من النصارى، من كان منهم على دين نجران، أو على شيء من نِحَل النصرانية، كتبه لهم محمد بن عبد الله، رسول الله إلى الناس كافة، ذمة لهم من الله ورسوله وعهدا عهده إلى المسلمين من بعده، عليهم أن يعوه ويعرفوه ويؤمنوا به ويحفظوه لهم، ليس لأحد من الولاة، ولا لذي شيعة من السلطان وغيره نقضه، ولا

_

⁽۱) هي نسخة وليست أصلا، لأن الأصل نُهِب واستُبدِل بنسخة بأمر السلطان سليم الأول الذي أصر على حمل الأصل معه لدى قفوله من غزو مصر عام ١٥١٧ (ICA 2013).



تعدّیه إلى غیره، ولا حمل مؤونة من المؤمنین، سوى الشروط المشروطة في هذا الكتاب. فمن حفظه ورعاه ووفى بما فیه فهو على العهد المستقیم والوفاء بذمة رسول الله. ومن نكثه وخالفه إلى غیره وبدله فعلیه وزره؛ وقد خان أمان الله، ونكث عهده وعصاه، وخالف رسوله، وهو عند الله من الكاذبین؛ لأن الذمة واجبة في دین الله المفترض، وعهده المؤكد؛ فمن لم یرع خالف حرمها، ومن خالف فلا أمانة له، وبريء الله منه، وصالح المؤمنین (حمیدالله ۱۹۸۰: ۱۸۱).



الشكل (٢) العهدة النبوية من النبي محمد إلى نصارى العالم (المصدر: مكتبة دير سانت كاترين)

وهديًا بالسنة الفعلية نجد أن النبي (ﷺ) قد عفّ يده عن أي دار اجتماع أو عبادة أو تقرّب للأوثان في المدينة المنورة بعد هجرته إليها من مكة، واعتمد على الوحي في اختيار موقع بناء مسجد له وتوخى ذلك في مسلك ناقته التي بركت في مربد المدينة حتى إنه قال: "هذا إن شاء الله المنزل"، ثم طلب من سادات بني النجار الحضور ومعهم الغلامين اليتيمين صاحبي الأرض ليعرض عليهم شراء تلك الأرض، قائلا: "يا بني النجار، ثامنوني بحائطكم هذا- أي اطلبوا له ثمنا- فقالوا: "لا والله لا نطلب ثمنه"، وقال الغلامان: "بل نهبه لك يا رسول الله"، إلا أن النبي (ﷺ) أبى لعلمه بحاجتهما، وعوضهما بالثمن المناسب" (البخاري ١٩٨٧: ٣/١٦). وإذا كان عمل الصحابي وفتواه من مصادر التشريع فقد ثبت عن خالد بن الوليد أنه عاهد أهل دمشق بأن "أمّنتهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يُهدم، ولا يُسكن شيء من دورهم" (حميدالله ١٩٨٥: ١٤٥٧)، فيما أعطى عمر بن الخطاب (٦) أهل أيليا (القدس) الأمان بما يُعرف تاريخيا باسم "العهدة العمرية"، وجاء فيها: "أعطاهم أمانا لأنفسهم ولأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها. إنه لا تُسكن كنائسهم ولا يُعنم، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرَهون على دينهم ولا يضار أحد منهم" (حميدالله ١٩٨٥: ٨٠٤).



أهم الحجج المصاحبة للقرار (١)

يستعرض هذا المبحث أهم الحجج التي صاحبت القرار تأييدا أو اعتراضا، ونسق العرض قائم على إيراد حجة المؤيدين مشفوعة بالتحليل والحجج المقابلة من المعارضين.

- 1. الحجة الأولى: حق ممارسة السيادة. يرى المحتجون بهذه الحجة أن تركيا دولة مستقلة ذات سيادة، وأن الأثر موضوع القرار على أرض الدولة، فهو مشمول بأحكام السيادة التي تخول الدولة اتخاذ ما تشاء من قرارات بشأنه.
- التحليل والحجة المقابلة. سيادة الدولة من المباديء القانونية المعترف بها دوليا منذ معاهدة ويستفاليا (١٦٤٨) الأوروبية التي يُرد إليها ابتداء هذا المبدأ في العالم (1996) (Thomson 1996)؛ لكن الدولة مطالبة برعاية الحقوق الأساسية للإنسان بدون تمييز بسبب الدين أو النوع أو خلافه (2020). ويضاف إلى ذلك أن افتئات الدولة على ما بداخلها من بشر أو آثار أو خلاف ذلك يستدعي تدخلا دوليا تحت مظلة الأمم المتحدة ولحماية التراث العالمي، فمثلا: عندما شرع نظام طالبان الحاكم في أفغانستان عام ٢٠٠١ في هدم أكبر وأقدم تمثالين في العالم لبوذا (أحدهما بارتفاع ١٦٥ قدما، ويربو عمرهما على ١٦٠٠ عام) بالتكسير ثم بالتفجير؛ توالت دعوات الاستئكار والرفض، والدعوة إلى نقل التمثالين أو شرائهما، وصدر قرار بإدانة ذلك من الجمعية العامة للأمم المتحدة (الجلسة ٤٤) سعت مصر إلى تحويل آثار إغريقية إلى كنائس، أو سعت اليونان إلى تحويل آثار إغريقية إلى كنائس، أو الى مبدأ قانوني سياسي لتبرير قرار التحويل؛ ألا وهو السيادة؛ وهذه هي حيلة "التقنين" في المحاججة؛ أي محاولة إضغاء الصبغة القانونية على الحجة.
- ٢. الحجة الثانية: الانتصار للإسلام. أي أن المسلم الحق يفرح برفع الأذان في أي مكان، ويفرح بأية نصرة للدين ولو كانت شكلية، ومن لا يفرح بالأذان فعليه أن يُراجع نفسه ودينه (١) (زكريا ٢٠٢٠)؛ وقد بات دخول "آيا صوفيا" بالوضوء لا بالتذكرة، وأن عملية سلخ الشعب التركي عن الإسلام لم تتكلل بالنجاح كما أمل الغرب(٦) (زكريا ٢٠٢٠).
- التحليل والحجج المقابلة. يمارس أنصار القرار بهذه الحجة حيلة "السَّمْك"، أي رفع الشيء إلى منزلة عليا ودمجه فيها وتصويره بها؛ ومنه قولهم: سَمَك السماء؛ أي رفعها فجمّلها، والسَّمْك هنا

⁽۱) هذه الحجج مستقاة من المحاججات الرسمية وغير الرسمية بخصوص القرار ؛ سواء أكانت على صفحات مواقع التواصل الاجتماعي أم على ألسنة مسؤولين.

⁽٢) جابت هذه الحجة آفاق مواقع التواصل إثر إطلاقها على لسان الشيخ حاتم الحويني في مصر.

⁽٣) هذا كلام السياسي الموريتاني محمد المختار الشنقيطي.



ناتج من الجمع بين قرار قضائي-سياسي ونصرة الإسلام نفسه؛ كما يجمع الأنصار مع حيلة "السَمك" حيلة أخرى هي "التخويف بالمقدس"؛ فراحوا على مستوى العامّة والخاصة كما سلف بيانه لله يغرفون رافضي القرار بأنهم ينالون بذلك من الإسلام نفسه؛ إذ لم يفرحوا برفع الأذان. وهذا "التديين" للقرار ينال من حجة التقنين ومن صدق حجة الشراء (الحجة السادسة) وحجة أحكام الكنائس في الأرض المفتوحة عنوة (الحجة السابعة).

- ٣. الحجة الثالثة: الإثخان في العدو. أي أن القرار يزعج أعداء تركيا الذين هم أعداء الدين الإسلامي، وأن القرار نفسه هو بداية الطريق إلى تحرير القدس، كما قال الرئيس التركي نفسه في تغريدة على حسابه العربي على تويتر: "إحياء آيا صوفيا من جديد، هي بشارة نحو عودة الحرية للمسجد الأقصى" (حسين ٢٠٢٠).
- التحليل والحجج المقابلة. لتركيا أعداء كثر من المنظور التركي سواء على حدودها^(۱) أم بعيدا عنها؛ ولا يصح الجمع بين تركيا والإسلام على صعيد واحد بحيث تصير الإشارة إلى أي منهما إشارة إلى الآخر؛ لا تركيا ولا أي دولة؛ فالإسلام دين والدولة أي دولة كيان سياسي جغرافي؛ ومن ثم، مارس أنصار هذه الحجة حيلة "الاجتسار"؛ أي إقامة جسر واصل بين نقاط غير مترابطة كحال الجسر الذي يُبنى لعبور مجرى مائي مثلا، فجسروا بذلك الفجوة البدهية بين تركيا (دولة) وبين الدين (الإسلام)؛ وأكثر ما يتجلى ذلك في تغريدة رئيس تركيا نفسه على حسابه العربي على تويتر: "إحياء آيا صوفيا من جديد، هي بشارة نحو عودة الحرية للمسجد الأقصى".



الشكل (٣) صورة من تغريدة للرئيس التركي بالعربية تربط بين قرار التحويل وعودة المسجد الأقصى، وأخرى بالإنجليزية تتعهد بأن تظل أبواب آيا صوفيا مفتوحة للجميع؛ ولا يخفى ما في ذلك من تناقض (المصدر: حساب الرئاسة التركية على تويتر)

٤. الحجة الرابعة: الرد على أفاعيل نالت من مساجد المسلمين. يسوق أنصار القرار هذه الحجة بدعوى أن دولا أخرى نكّلت بالمسلمين من خلال هدم مساجد أو إغلاقها أو تحويلها إلى دور عبادة؛ ويكاد يتفق الدافعون بهذه الحجة على واقعة مسجد "بابري" الكائن بولاية أوتار براديش الهندية؛ إذ ظل مثار صدام بين المسلمين والهندوس لعقود؛ فهو مسمى على اسم "بابر" – أول سلطان للمغول في الهند،

⁽۱) تباشر تركيا لحظة كتابة هذه السطور عمليات عسكرية على حدودها مع سوريا والعراق وأرمينيا، فضلا عن مناوشات مع اليونان، وانخراط مباشر في ليبيا (دولة غير حدودية مع تركيا) لمساندة حكومة الوفاق الليبية.



فيما يرى الهندوس أن أرض المسجد هي مسقط رأس أكثر آلتهم تبجيلا (الإله "راما"). كما يكاد يتفق أنصار هذه الحجة على الاستشهاد بتحويل مساجد الأنداس في إسبانيا إلى كاتدرائيات أو إلى استخدامات أخرى، وهو ما يسوغ القرار التركي ردًا على المساس بحقوق المسلمين في العالم.

- التحليل والحجج المقابلة. الاحتجاج بواقعة مسجد "بابري" يعطّل الحجة الأولى (السيادة) ويعضد الحجة الثانية (الانتصار للدين) في مثال الهند. فقد قضت المحكمة العليا الهندية بأحقية الهندوس في (الانصياع للحكم القضائي) في مثال الهند. فقد قضت المحكمة العليا الهندية بأحقية الهندوس في أرض المسجد (BBC 2019). أما الاحتجاج بما حدث في إسبانيا فالمعلوم أنه مما لا يقبله أحد لما واكبه من ظرف تاريخي أثيم تخللته إقامة محاكم التفتيش للمسلمين ولليهود. ومن ثم، فإن توظيف قرار التحويل بوصفه "ردا" على ما حدث في شرق العالم وغربه لمسلمين إنما يهبط بالمحاجج إلى حيلة تسمى "التسافل"، وهو عكس الارتقاء والعلو، والمعنى أن المحاجج يورد أمثلة غير مقبولة بأي معيار ثم يسعى إلى مجاراتها؛ وهذا تسافل تلفظه الفطرة، وإذا كان المحاجج يأنف من تلك الممارسات فأولى به الترفع عنها، لا الارتداد فيها أو اتخاذها سندا لتصرفاته، وكيف يجمع أنصار القرار بين هذه الحجة ومقتضيات التأصيل الشرعي المُلزِم سالف البيان؟.
- الحجة الخامسة: وصية الفاتح! وقف الرئيس التركي بنفسه في مقطع مصور يتلو ما قال إنها المسوغ "وصية الفاتح" التي يرجع تاريخها إلى ١ من يونيو ١٤٥٣ بخصوص "آيا صوفيا"، مؤكدًا أنها المسوغ للقرار الذي هو منجاة من الوعيد المذكور في الوصية؛ ونصها:

"أي شخص قام بتغيير هذه الوقفية التي حولت آيا صوفيا إلى مسجد، أو قام بتبديل إحدى موادها، أو ألغاها أو حتى قام بتعديها، أو سعى لوقف العمل بحكم الوقف الخاص بالمسجد من خلال أي مؤامرة أو تأويل فاسق أو فاسد، أو غير أصله، واعترض على تفريعاته، أو ساعد وأرشد من يقومون بذلك، أو أسهم مع من قاموا بمثل هذه التصرفات بشكل غير قانوني، أو قام بإخراج آيا صوفيا من كونه مسجدًا، أو طالب بأشياء مثل حق الوصاية من خلال أوراق مزورة، أو سجله (المكان) في سجلاته عن طريق الباطل أو أضافه لحسابه كذبًا، أقول في حضوركم جميعًا إنه يكون قد ارتكب أكبر أنواع الحرام واقترف إثما، وأن من غير هذه الوقفية شخصًا كان أو جماعة، عليه أو عليهم إلى الأبد لعنة الله والنبي والملائكة والحكام وكل المسلمين أجمعين، ونسأل الله ألا يخفف عنهم العذاب، وألا ينظر لوجوههم يوم الحشر، ومن سمع هذا الكلام، وواصل سعيه لتغيير ذلك، سيقع ذنبه على من يسمح له بالتغيير، وعليهم جميعًا عذاب من الله، والله سميع عليم" (arabic.sputniknews 2020).

• التحليل والحجج المقابلة. للوصية أحكام في الشريعة الإسلامية، ومن شروطها ألا تحل حرامًا أو تحرم حلالا (الشوكاني ١٩٩٣)؛ وانتزاع الكنيسة وتحويلها مسجدا بالمخالفة لآيات القرآن وعهود



النبي والصحابة هو من قبيل إحلال الحرام، وبذلك تسقط حجية الوصية، والوصية التي تقرر أن الأثرَ وقف تقتضى إبراز سند الوقفية (انظر تحليل ذلك في الحجة السادسة)، ولو كانت صفة الوقف منطبقة لكان أول من تنصب عليه اللعنات الواردة في الوصية هم السلاطين العثمانيون الذي دُفِنوا ودَفنوا في أرض "الوقف"، ولكان تاليهم في ذلك مصطفى أتاتورك مؤسس تركيا الحديثة عندما قرر تحويل المسجد إلى متحف. فأين إحقاق هذه الحقائق من الاحتجاج بهذه الحجة؟! هنا مارس الرئيس التركي حيلة المحاججة التي تُسمى "الصَّرْف"؛ أي صرف المسؤولية عنه ونسبتها إلى الوصية، ولو ثبت صدق الوصية فما الداعي إلى صدور حكم قضائي يسوّغ القرار؟! أليست وصية الميت "وإجبة" في الشريعة الإسلامية؟! يضاف لما سلف أن النظر في صك الشراء المُدَّعى وجوده يسطّر اسم ابنة محمد الفاتح، كوهرخان خاتون، فكيف يمكن الجمع-والحال هذه- بين صفة الشراء والوقف والهبة وأي تصرف لاحق على ذلك؟!.

- ٦. الحجة السادسة: شراء الأثر التاريخي ونصف كنائس المدينة عند الفتح. يَرُوجُ عند أنصار قرار التحويل أن السلطان محمد الثاني قد اشتري كنيسة "آيا صوفيا" بعد دخول القسطنطينية من حر ماله، بل اشتري نصف كنائس المدينة لتحويلها إلى مساجد (الدمرداش ٢٠١٤)؛ وبذلك تتنفى أدنى مشروعية عن أية مطالبة باسترداد الأثر أو إبقائه كنيسة أو متحفا، فهو منذ "شرائه" مِلك مُطلق لمشتريه.
- التحليل والحجج المقابلة. يسوق أنصار قرار التحويل هذه الحجة على سند من "الذمة المالية" الحرة التي تخول للمالك التصرف في ملكه، وتقرر المصادر التاريخية التركية نفسها أن أول صلاة جمعة أقيمت في "آيا صوفيا" وافقت يوم ١ من حزيران/يونيو ١٤٥٣؛ أي بعد سقوط الكنيسة في ٢٩ من آيار/مايو ١٥٣٢ – أي في اليوم الثالث من بسط السلطان عليها (بوست ٢٠١٦). والسؤال: كيف تُمِّم البيع والشراء بهذه السرعة وأين سُجِل إذا كانت الصورة أدناه تقرر أنه مسجل؟! وما الداعي للشراء أصلا وقد دان كل شيء لسلطان محمد الثاني؟ ثم: ألا يتعارض ذلك مع الحجة السابعة (مصادرة الكنائس في الأراضي المفتوحة عنوة)؟ والأهم من ذلك: كيف يصاغ صك الشراء بأحرف عربية (اللغة التركية القديمة) بدون لغة الطرف الآخر؟ ولماذا يرد فيه اسم ابنة السلطان؟ أما أهم الأسئلة قاطبة فهو: قد كان دخول القسطنطينية عنوة، ولهذا حكمه المحتج به، فهل للمدخول عليه (أو: المحتلة أرضه بلغة العصر الحديث) من إرادة حرّة تخوله التصرف في الملكية؟ والمعلوم في شريعة الإسلام أن فعل المُكْرَه لا يقع؛ لأنه يُفقِد الإنسان أهلية التصرف (عمر ٢٠٠٥). ومَن الطرف البائع؟! وأليس من الغريب أن يتمم صك البيع بلغة واحدة لا يفهمها إلا طرف واحد، في حين جرت عادة البشر منذ القديم على المزاوجة بين لغات المتعاملين إثباتا للحقوق(١) ودرءا للبس؟! وكيف يرفع السلطان "الفاتح" غريمه المهزوم إلى مستوى الند في وثيقة قانونية تاريخية بهذه الجسامة؟!.

⁽۱) انظر مثلا حجر رشید المکتوب بثلاث لغات.





الشكل (٤) صورة صك شراء الكنيسة (يمين) وسند تسجيل الملكية (يسار) (islamiclandmarks.com)

ثم إن الرواية الرسمية التركية أفرجت عن صك شراء وسند تسجيل ملكية (الشكل ٤ أعلاه)؛ أي عن وثيقتين مختلفتين، والمدقق يجد أن سند تسجيل الملكية معنون بعبارة تركية هي "TAPU SENEDI" وتعني "سند الملكية"؛ في حين تذكر الرواية الرسمية أن الأثر كله وقف لله، كما أن التسجيل يُظهِر كلمة "Vakf" التي تعني "مؤسسة" أو "وقف"، ووثيقة التسجيل هذه صادرة في العصر الجمهوري؛ لأن سند التسجيل مُصدَّر بعبارة "الجمهورية التركية"؛ ألم يكن في عهد السلطان الواقف أو في عهود عثمانية لاحقة مؤسسة لتسجيل الملكيات وإدارة الأوقاف؟ علاوة على ذلك، لا يحمل سند التسجيل تاريخا، ولولا تصديره بعبارة "Türkiye Cumhuriyeti" (الجمهورية التركية) لظل عصر إصداره مجهولا. وللإنصاف، يحمل سند التسجيل تاريخا غريبا هو "٣٦/١/١٩٣؛ ومن المستحيل أن يكون صحيحا؛ لأن تركيا صارت جمهورية في ١٩٣٣ بمقتضى معاهدة لوزان المذكورة آنفا، ولا يمكن أن يكون ٣٣٦ تاريخ عام صحيح؛ لأن حفول القسطنطينية وتحويل "آيا صوفيا" إلى مسجد كان قبل ذلك العام بنحو أربعة قرون، ولو كان ذلك لعام صحيحا لصدر السند بأحرف عربية بالتركية القديمة معنونا بعبارة "سند خاقاني" كما جرت العادة، ولحمل ختم "الطغراء" المعروف على عادة إصدار الوثائق الرسمية في ذلك العصر (الشكل ٥)، ولما حل- بطبيعة الحال على الحال على نحو ما سلف بيانه.



الشكل (٥) صورة لسند ملكية في العهد العثماني مكتوب بالتركية بأحرف عربية ومصدّر بختم الطغراء وعبارة "سند خاقاني" (المصدر: awraq.birzeit.edu)



ملحظ أخير مفاده أن صكوك الملكية في جمهورية تركيا تصدر على أحد نوعين، الأول هو "السند الأزرق" (Blue Tapu). أما الأول فيخص تسجيل ملكيات الأرض الفضاء أو عقار مشترك مع الغير؛ وأما الثاني فيخص تسجيل الملكية المُطلقة تسجيل ملكيات الأرض الفضاء أو عقار مشترك مع الغير؛ وأما الثاني فيخص تسجيل الملكية المُطلقة على نوعين: الأول هو الملكية قيد الإنشاء، والثاني سند التملك بعد الفحص البلدي بما يتيح توصيل المرافق. وهناك فارق أيضا بين السند الأزرق والسند الأحمر، مفاده أن السند الأزرق مُصدر بعلم الجمهورية وفتحة الهلال مقابلة لأعلى المستند، أما السند الأحمر فمصدر بالعلم وفتحة الهلال إلى يمين المستند (PropertyTurkey 2020). الغريب أن الصورة الرسمية لسند تسجيل "آيا صوفيا" غير محدد بأحد اللونين؛ ما يثير التساؤل عن سر ذلك، لكن التدقيق فيه يرجّح التسليم بأنه من فئة "السند الأزرق" بسبب وضعية هلال العلم، وعلى ذلك، فإن الملكية موضوع سند التسجيل هي إما ملكية أرض فقط بدون أي بناء مقام عليها (وهو ما لا ينطبق على "آيا صوفيا")، وإما ملكية بناء مشتركة (وهو ما لا ينماشي كذلك مع الاحتجاج بشراء "آيا صوفيا" وأرضها من حر مال السلطان محمد الثاني).

	is				Tür	kive (Cumhu	riveti					
ANA GAYRIMENKULÜN	fiçesi		2										
	Mahalk	isi	3				3			Fe	otočraf		
	Köyü	1	4			6							
	Sokağı	_		5	200		-						
	Mevkii	levkli			TAPU SENEDİ					Yandigoma			
	Patta No.		Ada No.	Parsel No.	Niteligi			ha	T.	m#	dm≠		
			7		15	8	3				9		
	Siner 10												
	KAT MÜL	KIYET	110	23 - 1	KAT INTIFAKI				DEVRE MÜLK				
	Satiş Bedel			iii .		Niteligi		Arsa Pa		Blok No.	Kat No.	Beğirre Birt. N	
	12					13		14	6 13	15	16	17	
SIMSIZ BOLOM	Edirime Sebebi		8										
BAGIMSIZ BOLOM	Edinme Sebela	1	8										
BAGIMSIZ BOLOM	Edirme Sebebi	1											
BAGIMSIZ BOLOM	Sebebi	1	8	Yoursye No.	Cit No.	Sahife No.	Sira No.	Tariti			Gris		
	Sahibi	1	8			Sahife					Gris		
CI	Sahibi Gel	1	8		No.	Sahile No.		Tarini			Gatis	¥	
CI	Sahibi Gel	1	8		No.	Sahife No.	No.	Tarini			Gris C	si Sit No.	

الشكل (٧) صورة لسند الملكية الأحمر في العهد الجمهوري مكتوب بالتركية بأحرف رومانية ومصدر بالعلم التركي (فتحة الهلال لليمين) وبعبارة "الجمهورية التركية" (المصدر:propertytyrke.com)



الشكل (٦) صورة لسند الملكية الأزرق في العهد الجمهوري مكتوب بالتركية بأحرف رومانية ومصدر بالعلم التركي (فتحة الهلال لأعلى) وبعبارة "الجمهورية التركية" (propertytyrke.com)

٧. الحجة السابعة: أحكام الكنائس في الأرض المفتوحة عنوة. يرى أنصار قرار التحويل أن تحويل
دور عبادة غير المسلمين إلى مساجد فعلٌ مأثور عن القرون الأولى للإسلام المعروفة بخيريتها،



وبذلك أفتى أيضا بعض أشهر علماء الأمة؛ وأن للمسلمين هدم الكنائس ودور العبادة الأخرى إذا دخلوا أرضا عنوة.

- التحليل والحجج المقابلة. الاحتجاج بهذه الحجة يجمع بين حيلة "الاجتسار" وحيلة "الانتقاء"؛ فالاجتسار هنا اجتسار زمني؛ إذ فات نحو خمسة قرون بين التحويل الأول والقرار الأحدث؛ ونحو قرن بين قرار التحويل إلى متحف وقرار التحويل إلى مسجد. أما حيلة "الانتقاء" فتعنى اختيار شيء من التاريخ أو الأسانيد، مع ترك ما عداها وفق ما تبين في مبحث التأصيل الشرعي أعلاه، بل إنه مأثور في ديننا فتح المساجد لأداء صلوات غير المسلمين؛ فقد روى ابن إسحاق (إسحاق ٢٠٠٨) أن وفد نجران قدموا على رسول الله (ﷺ) المدينة، فدخلوا عليه في مسجده حين صلى العصر، وقد حانت صلاتهم، فقاموا يُصلُّون في المسجد فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله (ﷺ): «دَعُوهُم»، فصلُّوا إلى المشرق. وروى الكندي (الكندي ٢٠٠٣: ١٠٠) "أن مُوسَى بْن عيسى لمّا ولِّيَ مصر من قِبَل أمير المؤمنين هارون الرشيد أَذِن للنصاري فِي بُنْيان الكنائس التي هدمها عليّ بْن سُليمان، فَبُنيت كلُّها بمشورة الليث بن سعد وعبد الله بن لَهيعة، وقالا: هُوَ من عِمارة البلاد، واحتجًا أن عامة الكنائس التي بمصر لم تُبْنَ إلَّا فِي الْإِسْلَام فِي زِمَن الصحابة والتابعين".
- ٨. الحجة الثامنة: استباق مئوية معاهدة لوزان والغاء الخلافة بتمهيد مناسب. هذه المعاهدة هي التي واكبها إلغاء الخلافة الإسلامية، وهي بصدد الانتهاء بعد ١٠٠ عام من تاريخ إبرامها (١٩٢٣)، وعندها تتطلق تركيا في نيل حقوقها بلا عوائق ولابد من استباقها بما يتلج الصدور من قرارات كقرار التحويل.
- التحليل والحجج المقابلة. يروج في السياسة التركية ووسائل الإعلام الموالية لها أن هذه المعاهدة تتقضى في العام ٢٠٢٣ إثر مرور مائة عام على إبرامها، علما بأنها المعاهدة التي قضت بتحديد حدود تركيا الحالية ومنها ضم الشق الشرقي من الأناضول إليها. وتذهب تلك الوسائل إلى أن انقضاء أجَل المعاهدة يعني انقضاء الحدود التركية الحالية، وأن للمعاهدة بنودا سرية تعني عودة القوات البريطانية لاسترداد حصون على ضفاف البوسفور، واقامة البطريركية الأرثوذكسية دولة بيزنطية صغرى داخل مدينة إسطنبول، وأن انقضاء المعاهدة يعنى عودة الحق المقيّد إلى تركيا للتتقيب عن احتياطيات النفط التي حُرمت من التتقيب عنها، فضلا عن عودة تراقيا الغربية إلى حضن تركيا (Danforth 2014). يقرر دانفورث في دراسته المنشورة بمجلة "فورين بوليسي" أن المعاهدة غير محدودة بزمن، وأن كل ما يُروج له لا أصل له في المعاهدة (١)، كما أن معاهدات الدول لا تتقضى مهما طال الزمن ما لم تتعقد إرادات أطرافها على تحديد مدة السريان، والدول ترث التزاماتها وفق مبادئ القانون الدولي (Aust 2005).

⁽١) المرجع السابق.



الاحتجاج هنا مستند إلى حيلة "استدرار العاطفة"، فالربط بين عودة ماضٍ "تليد" والتحرر من قيود الضعف التي فرضتها المعاهدة بما يحقق الانتصار للإسلام والمسلمين هو ربط عاطفي، وقد جاء إلغاء الخلافة بمقتضى المعاهدة مثيرا للعواطف، وهو كذلك مثير للأشجان عند من يرون الخلافة جزءا من الدين أو حامية للمسلمين، ولتبيان قوة العاطفة التي واكبت إلغاء الخلافة نجد أن أمير الشعراء، أحمد شوقي، قد رثاها في حينها بعصماء قوية المعاني والنظم، وكان قد سبقها بعصماء يمجّد بها مصطفى كمال أتاتورك (الضابط حينها في جيش السلطان العثماني، خليفة المسلمين) فقال فيه:

الله أكبر كم في الفتح من عجب () يا خالد التُرك جدِّد خالد العربِ صلحٌ عزيز على حرب مظفرة () فالسيف في غمده والحق في النُصُبِ فلما تبوأ أتاتورك الحكم وألغى الخلاف رثاها شوقى قائلا:

بهذا تتجلى مخاطبة العاطفة الدينية بهذه الحجة وكيفية ربطها بوقائع تاريخية وأهداف وآمال سياسية مستقبلية.

- 9. الحجة التاسعة: قرار التحويل صادر من السلطة القضائية المستقلة. الصبغة القضائية للقرار تجعل من السلطة السياسية منفّذة للقرار لا مُنشِئة له، وللسلطة القضائية احترامها.
- التحليل والحجج المقابلة. يتبادر إلى ذهن المعارضين عدة اعتبارات في هذا الصدد، أولها أن قرار تسليم مسجد "بابري" إلى الهندوس جاء بقرار من المحكمة العليا في الهند (انظر الحجة الرابعة)، فلو أن التعويل على السلطة القضائية لأوجب ذلك الرضا بقرار المحكمة الهندية وعدم الاحتجاج به وفق حيلة "التسافل" المذكورة آنفا، وثاني الاعتبارات أن القرار الصادر عن المحكمة الإدارية التركية مسبوق بقرار من المحكمة الدستورية في تركيا برفض التماس مقدم إليها في ٢٠١٨ لتحويل متحف "آيا صوفيا" إلى مسجد (Neoskosmos 2018)، فأي القرارين أولى بالاتباع؟ علما بأن المحكمة الدستورية التركية هي ذروة المؤسسة القضائية في تركيا ولادارية بعد الفصل فيه بقرار محكمة لا معقب (2015) فكيف يحال أمر "إداري" إلى المحكمة الإدارية بعد الفصل فيه بقرار محكمة لا معقب على حكمها وهي الأعلى في الدولة؟ وهناك ملمح آخر مفاده أن المجلس الأعلى القضاة ونواب العموم في تركيا قد أعفى ٥٤٧٥ قاضيا من مناصبهم، وأمر باعتقالهم في ١٦من يوليو ٢٠١٦ إثر محاولة الانقلاب؛ من بين هؤلاء ٤١٥ قاضيا في السلك الإداري، و ٢٠١٤ قضاة في السلك الجنائي، ثم زاد العدد ليصل إلى ٤٠٠٠ قاضٍ معزول (Toksabay 2017). وعلى ذلك، تمتاز هذه الحجة أيضا بحيلة "الصرف"؛ أي تعليق المسؤولية على جهة يتعذر الطعن عليها.



- ١٠. الحجة العاشرة: تزكية الفاتح وجيشه من النبي (ﷺ). يحتج أنصار القرار بحديث منسوب إلى النبي (الله عن البطلان السلطان محمد الثاني وينزه قراراته عن البطلان أو التثريب؛ إذ ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل عن النبي أنه قال: "لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش".
- التحليل والحجج المقابلة. الاحتجاج بحديث مسند الإمام أحمد مقترن بعدة حقائق واجبة الكشف، ھى:
- أ. أن الحديث المذكور آنفا لم يرد إلا في مسند أحمد من كتب الحديث التسعة الأساسية (١)، بيد أنه يرد في بعض المصنفات المتأخرة مثل "مستدرك الحاكم" مرويا بسند واحد، ومن المعلوم أن تعدد الرواة واختلاف السند (أي: سلسلة رواة الحديث) من سبل تقوية الحديث والارتقاء برتبته. أما مَرَدّ عدم شهرة الحديث المستشهد به فهو وروده عن صحابي يكاد يكون مجهولا عند أهل الحديث، هو بشر الغنوي؛ فيما تقرر مصادر أخرى أن اسمه بشر الخثعمى، والبعض يعد الرجلين شخصا واحدًا. الراوي المذكور ليس له في مصنفات السنة إلا هذا الحديث، وقد نقله عنه ابنه عبد الله بن بشر، وهو "مجهول الحال" لدى علماء الحديث، ولم يوثقه إلا ابن حبان متأخرًا لما عُرف عنه من التساهل في التوثيق، لكن التوثيق المنفرد عند أهل الجرح والتعديل لا يعد حجة (تيمية ٢٠٠٨)؛ لذلك حكم أحمد شاكر، والألباني، وشعيب الأرناؤوط من شيوخ السلفية المعاصرين بضعف الحديث (ه. عمارة ٢٠٢٠).
- ب. مع التسليم جدلا بثبوت الحديث، فإن إسقاطه على السلطان محمد الثاني ليس شائعًا في كتب الأولين ممن عاصروا السلطان ومن بعده، فأشهر معاصريه من المؤرخين (السيوطي والسخاوي وابن العماد) ذكروا ترجمة محمد الفاتح في كتبهم ولم يربطوا بينه وبين الحديث النبوي، وعلة ذلك أن الفتح المذكور مرتبط لديهم بخروج الدجال وملاحم آخر الزمان؛ وبهذا قال الشهاب الآلوسي^(۲) (الآلوسي ۲۰۰۸). ومن المتأخرين جزم الشيخ أحمد شاكر بأن الحديث نبوءة بأحداث آخر الزمن، وأن فتح الترك السابق كان تمهيدًا للفتح الأعظم (شاكر ٢٠٠٥).
- ج. أن نص الحديث المستدل به من صحيح مسلم على فتح القسطنطينية متعارض مع ما تم على يد السلطان محمد الثاني؛ فنص الحديث مروى عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي قال: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفا من بني إسحاق. فإذا جاءوها نزلوا. فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم. قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر. فيسقط أحد جانبيها. قال ثور (أحد رواة

⁽۱) هي: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجه، ومسند أحمد، وموطأ مالك، وسنن الدارمي.

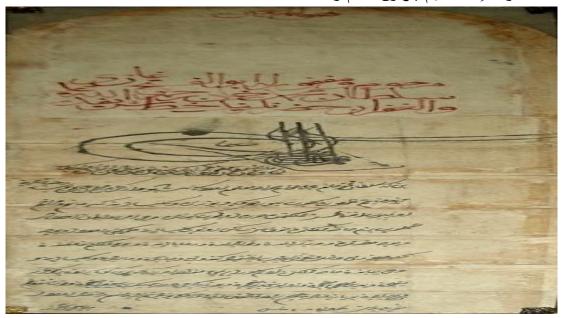
⁽٢) محمود شهاب الدين أبو الثناء الحسيني الآلوسي، مفسر، ومحدث، وفقيه، وأديب، وشاعر.



الحديث): لا أعلمه إلا قال: الذي في البحر. ثم يقولون الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر. فيسقط جانبها الآخر. ثم يقولون الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر. فيفرج لهم. فيدخلوها فيغنموا. فبينما هم يقتسمون الغنائم؛ إذ جاءهم الصريخ فقال: إن الدجال قد خرج. فيتركون كل شيء ويرجعون". (النيسابوري ٢٩٢٠: ٢٩٢٠) والمستفاد من الحديث أن "الفتح" سيكون بلا قتال، وقد كان دخول محمد الفاتح بقتال وحصار، كما أن صريح نص الحديث يفيد بخروج الدجال الذي هو من علامات آخر الزمان؛ أي علامات القيامة الكبرى.

وأخيرا، ثمة تناقض بين التصرف في كنيسة "آيا صوفيا" بالشراء أو عنوةً أو بأية وسيلة، وبين إقدام السلطان محمد الثاني نفسه على كتابة ما يعرف تاريخيا باسم "العهدنامه" (أي: عهد الأمان) إلى الكهنة والقساوسة في البوسنة؛ إذ جاء فيه:

نحنُ السُلطان مُحمَّد خان... نُعلنُ لِعامَّة النَّاس وخاصَّتهم أننا أنعمنا على رُهبان البوسنة الذين يحملون هذا الفرمان، وأصدرنا الأوامر: ألَّا يتعرَّض أحد لِهؤلاء الرُهبان ولا لِكنائسهم، ولا يتمّ إزعاجهم... من يكون منهم في بلادي مُستقرًا فيها، أو هاربًا إليها على حدِّ سواء، لهم الأمن والأمان، يُمكنهم أن يأتوا إلى بلادي ويسكُنوا فيها بِأمانٍ، ويستقرُّوا في كنائسهم... ولن يُصيب هؤلاء أي شكلٍ من أشكال التعرّض والإضرار من أحد، لا منًا ولا من وُزرائنا ولا من شعبنا... وبإعلان هذا الفرمان، أقسم بِالله العظيم خالق السموات والأرض، وبِالرُّوح النقيَّة الطاهرة المُنوَّرة للرسول صلواتُ الله وسلامه عليه، وبِالصُحف السبعة، وبحق ١٢٤ نبيّا ورسولا، وبحق هذا السيف الذي أتأبطه، بِأنَّنا لن نسمح أن يُخالف أيٌ من أفراد رعيتنا ما كُتب وأفهم، ما دام أولئك المُوجَّة لمصلحتهم يلزمون السلم والطاعة.



الشكل (٨) صورة لعهد الأمان (العهدنامه) الصادر من السلطان محمد الثاني (الفاتح) إلى المسيحيين ورهبانهم في البوسنة (المصدر: sabq.org)



الأثر القانونى والدينى للقرار

ترتب على قرار التحويل صيرورة المتحف إلى مسجد تقام فيه الصلوات الخمس والجُمع وغيرها من الصلوات، وترتب عليه أيضا الحكم ببطلان قرار مصطفى كمال أتاتورك تحويل المسجد (يومئذ) إلى متحف، فضلا عن تكليف المؤسسة الدينية الرسمية (رئاسة الشؤون الدينية) باتخاذ ما يلزم لفتح المسجد أمام المصلين؛ بما في ذلك طمس ما تبقى من نقوش ورسوم وأيقونات مسيحية بأساليب مناسبة؛ مثل تقنيات الإضاءة. أما الأثر الديني فقوته الإعلامية والخلافية أقوى من أي جانب ديني حقيقي؛ فتسبيس الموضوع هو السائد، وليس أدل على ذلك من توارد رسائل الاهتمام أو القلق أو الرفض من دول مثل الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا واليونان وغيرها. أما على مستوى الدول ذات الأغلبيات المسلمة، فمنها من رفض القرار وعدَّه غير قانوني ومجحفا دينيا، ومن هؤلاء دار الإفتاء المصرية (روسيا.اليوم ٢٠٢٠)؛ فيما ناصر القرار مفتي سلطنة عمان (سي.إن.إن.بالعربية ٢٠٢٠).

جاء قرار التحويل تتويجا لعملية قضائية طويلة تخللها رفض السلطة القضائية الأعلى، المحكمة الدستورية التركية، التماسا في ٢٠١٨ بتحويل المتحف إلى مسجد، ثم جاء قرار المحكمة الإدارية العليا ليصادف هوى سياسيا مكن لقرارها أن يُنفَّذ بخلاف قرار المحكمة الدستورية. وبعيدًا عن دوائر التأييد والمعارضة، فقد أصدرت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) بيانا أعربت فيه عن "أسفها الشديد" لقرار التحويل الصادر عن السلطات التركية، قائلة إن "آيا صوفيا" تمثل جزءا من مدينة "إسطنبول التاريخية" المدرجة في قائمة اليونسكو للتراث العالمي بوصفها متحفا، مضيفة أنها:

تحفة معمارية وشاهد فريد على التفاعل ما بين أوروبا وآسيا على مر القرون، ويعكس وضعها بوصفها متحف الطبيعة العالمية لتراثها، ويجعلها رمزا مهما للحوار" [...] ويثير القرار الذي أعلن عنه اليوم مسألة تأثير تغيير الوضع في القيمة العالمية لهذا التراث الثقافي، وبناءً على ذلك، يجب أن تحرص الدولة التي توجد ممتلكات التراث الثقافي على أراضيها، على عدم إدخال أي تعديل عليها من شأنه الإضرار بقيمتها العالمية الاستثنائية، ويقتضي إدخال أي تعديل من هذا النوع، قيام الدولة المعنية بإخطار اليونسكو مسبقا بالموضوع، وبعدها نقوم لجنة التراث العالمي بالنظر فيه، عند الاقتضاء. وتذكّر اليونسكو بأنّ مشاركة المجتمعات المحلية وغيرها من الأطراف المعنية بالممتلكات الثقافية، مشاركة فعلية ومنصفة وشاملة للجميع، هي شرط أساسي للحفاظ على هذه الممتلكات، ولإبراز فرادتها وقيمتها؛ ويفيد هذا الشرط في حماية القيمة العالمية الاستثنائية للتراث الثقافي ونقلها، وهو جزء أصيل من روح اتفاقية التراث العالمي. ومن المؤسف اتخاذ هذا القرار من دون إجراء أي حوار أو إخطار مسبق. وتدعو اليونسكو السلطات التركية إلى استهلال هذا الحوار دونما تأخير؛ بغية تجنب أي تراجع للقيمة العالمية لهذا التراث الاستثنائي، الذي ستقيّمه لجنة التراث العالمي حالة صونه في أثناء انعقاد العالمية لهذا النزاث الاستثنائي، الذي ستقيّمه لجنة التراث العالمية الهذا التراث الاستثنائي، الذي ستقيّمه لجنة التراث العالمي حالة صونه في أثناء انعقاد العالمية لهذا التراث الاستثنائي، الذي ستقيّمه لجنة التراث العالمي حالة صونه في أثناء انعقاد



دورتها المقبلة. وأشار مساعد المديرة العامة لليونسكو للثقافة، إرنستو أوتوني راميريز، إلى أنّه "من الضروري تجنب اتخاذ أي تدبير تنفيذي لم يناقش مسبقا مع اليونسكو، وقد يؤثر في عملية الدخول إلى المبنى وفي هيكليته وفي أثاثه وأسلوب إدارته"، فقد يشكّل اتخاذ مثل هذه التدابير انتهاكا للقواعد التي وضعتها اتفاقية التراث العالمي لعام ١٩٧٢ (UNESCO 2020).

خاتمة

استنادًا إلى تحليل الحجاج الديني والإعلامي لقضية تحويل "آيا صوفيا" إلى مسجد، وعرض الحجج الداعمة والرافضة بشكل حاول الباحث فيه التزام الموضوعية العلمية بعيدا عن التسييس والانحيات على حساب الآخر، يتضح أنه ليس في القرآن ولا في السنة النبوية الصحيحة ولا في سلوك المرجعيات الدينية المسلمة المعتبرة ما يسوغ انتزاع دور العبادة من غير المسلمين أو حتى منازعتهم فيها بأية وسيلة، ولا سبيل لدحض الأدلة من القرآن والسنة والآثار على صدق هذا الحُكم. بل إن القرآن أورد في سورة التوبة أن كل مسجد لم يُبن مُبرّءا من أي هوى وخالصا لوجه الله تعالى فهو مسجد "ضرار" (التوبة: ١٠٠-١١) ولا تجوز الصلاة فيه أبدًا بنص الآيات. والأولى من النزوع إلى حيلة "التسافل" الارتقاء إلى حيلة "التسامي"، وهذه حاضرة – لمن شاء المقارنة – بواقعة مؤداها أن القسطنطينية لم تفتح في عصر الصحابة، فإن معاوية بعث إليها ابنه يزيد في جيش فيهم أبو أيوب الأنصاري، ولم يتم لهم فتحها؛ ثم حاصرها مسلمة بن عبد الملك ولم تفتح أيضا، ولكنه صالح أهلها على بناء مسجد بها (زيني ١٩٦٩: ١/٢٢). والأمل معقود دائما على "التسامي" بين أبناء الجنس البشري ليهتدوا بدواعي "الحكمة الإلهية" في الاختلاف؛ لتكون "الحكمة الإلهية" حاضرة، ليس في أسماء دور العبادة فحسب، بل في عقول قاصديها أيضًا.

المراجع

- arabic.sputniknews. 2020. arabic.sputniknews. 11 July .Access date 21 July, 2020 . https://arabic.sputniknews.com/world/202007111045974773 تركيا-تكشف-عن-تحذير --السلطان-محمد-الفاتح-لمن-يقوم-بإخراج-آيا-صوفيا-عن-كونه-مسجدا
- Atiya, Aziz Suryal. 1955. The Arabic Manuscripts of Mount Sinai: A Handlist of the Arabic Manuscripts and Scrolls Microfilmed at the Library of the Monastery of St. Catherine, Mount Sinai .Baltimore: Johns Hopkins Press.
- Aust, Anthony. 2005. *Handbook of International Law*. Cambridge: Cambridge University Press.
- BBC. 2019. BBC.com/arabic. 9 November .Access date 21 July, 2020.
 - https://www.bbc.com/arabic/middleeast-50359056.
- Chrysopoulos, Philip. 2019. *Greek Reporter*. 26 September .Access date 19 July, 2020 . https://greece.greekreporter.com/2019/09/26/the-brave-greek-priest-who-held-a-divine-liturgy-in-hagia-sophia-in-1919./
- Russian Orthodox Church. 2005. *Russian Orthodox Church*. 7 January .Access date 20 July, 2020 .http://www.patriarchia.ru/en./
- Constitutional Court Turkey. 2015. *The Constitutional Court of the Republic of Turkey. 13* May .Access date 22 July, 2020.
 - http://www.constitutionalcourt.gov.tr/inlinepages/constitutionalcourt/shorthistory.html.



- Danforth, Nick. 2014. *Notes on a Turkish Conspiracy*. Investigation Report 'Washington, D.C.: Foreign Policy.
- Deutsche Welle. 2017. "Hagia Sophia Museum or Mosque?". 26 June .Access date 20 July, 2020 .https://www.dw.com/en/hagia-sophia-museum-or-mosque/a-39428448.
- Ecumenical Patriarchate. 2002. *Patriarchate*. 25 January .Access date 19 July, 2020 . https://www.patriarchate.org./
- Encyclopaedia Britannica. 2020. *Hagia Sophia* . 19 March .Access date 19 July, 2020 . https://www.britannica.com/topic/Hagia-Sophia.
- Figes, Orlando. 2010. Crimea: The Last Crusade .London: Allen Lane.
- ICA. 2013. *International Council on Archives*. 13 May .Access date 20 July, 2020 . http://www.standards-ica.com/view_dist_des.php?id=41.
- Lowen, Mark. 2014. "Pope Francis Visit: Turkey's Christians Face Tough Time." *BBC*. 27 November .Access date 20 July, 2020 .https://www.bbc.com/news/world-europe-30214805.
- Mainstone, Rowland J. 1997. *Hagia Sophia: Architecture, Structure, and Liturgy of Justinian's Great Church* .London: Thames and Hudson.
- Neoskosmos. 2018. *neoskosmos.com*. 18 September .Access date 22 July, 2020. https://neoskosmos.com/en/121529/petition-to-turn-hagia-sophia-into-a-mosque-denied-by-turkish-constitutional-court./
- PropertyTurkey. 2020. *propertyturkey*. 20 April .Access date 22 July, 2020. https://www.propertyturkey.com/buyer-guide/how-to-get-a-turkish-title-deed-tapu#:~:text=A%20Turkish%20title%20deed%2C%20known,TAPU%20and%20Ca dastre%20General%20Directorate.
- Stivaktakis, Antonios. Unknown .*Archimandritis Eleftherios Noufrakis: An Emblematic Figure of Hellenism* .Athens: Unknown.
- Thomson, Janice E. 1996. *Mercenaries, pirates, and sovereigns: state-building and extraterritorial violence in early modern Europe*. Princeton: Princeton University Press.
- Toksabay, Ece. 2017. *Reuters*. 26 May .Access date 22 July, 2020. https://www.reuters.com/article/us-turkey-security/turkey-has-removed-more-than-4000-judges-prosecutors-after-coup-minister-says-idUSKBN18M0Q9.
- Toksabay, Ece; Butler, Daren. 2020. *Thomson Reuters Corporation. 10* July .Access date 19 July, 2020 .https://www.reuters.com/article/us-turkey-museum-verdict/erdogan-declares-hagia-sophia-a-mosque-after-turkish-court-ruling-idUSKBN24B1UP.
- UN. 2020. The UN Charter .New York, 22 July.
- UNESCO. 2020. *UNESCO.org*. 10 July .Access date 22 July, 2020. https://ar.unesco.org/news/ay-swfy-lywnskw-tsf-bshd-llqrr-ldhy-tkhdhth-lsltt-ltrky-mn-dwn-jr-hwr-msbq-wtdw-lhfz-lqym-llmy.
- UNGA. 2001. General Assembly "Appalled" by Edict on Destruction of Afghan Shrines: Strongly Urges Taliban to Halt Implementation .New York, 9 March.

ابن إسحاق، محمد. ٢٠٠٨. السيرة النبوية. القاهرة: دار الكتب العلمية.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. ٢٠٠٨. علم الحديث. بيروت: دار الكتب العلمية.



الآلوسي، محمود شكري. ٢٠٠٨. روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني. القاهرة: دار إحياء التراث العربي.

البخاري، محمد بن إسماعيل. ١٩٨٧. صحيح البخاري. بيروت: دار ابن كثير.

الخطيب، حسن. ٢٠١٦. أملاك الأوقاف المصرية في اليونان. تقرير صحفي، القاهرة: صوت الأمة.

الشوكاني، محمد علي. ١٩٩٣. نيل الأوطار. القاهرة: دار الحديث.

الطحان، محمود. ١٩٩٦. أصول التخريج ودراسة الأسانيد. القاهرة: دار المعارف.

العقالي، محمد الدمرداش. ٢٠١٤. الإسلام السياسي منعام الجماعة إلى حكم الجماعة. القاهرة: سما للنشر والتوزيع.

الكاتب، عبد الحميد. ٢٠٠٨. حكاية أتاتورك والإسلام. القاهرة: دار أخبار اليوم.

الكندي، أبو عمر محمد. ٢٠٠٣. كتاب الولاة وكتاب القضاة. بيروت: دار الكتب العلمية.

النيسابوري، مسلم بن الحجاج. ٢٠٠٦. صحيح مسلم. القاهرة: طيبة.

تركيا بوست. ٢٠١٦. *تركيا بوست.* ١ يونيو. تاريخ الوصول ٢١ يوليو، ٢٠٢٠.

https://www.turkey-post.net/p-134483./

حسين، عماد الدين. ٢٠٢٠. البيان. ١٨ يوليو. تاريخ الوصول ٢١ يوليو، ٢٠٢٠.

https://www.albayan.ae/opinions/articles/2020-07-18-1.3914655.

حميدالله، محمد. ١٩٨٥. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة. بيروت: دار النفائس.

دقائق. ٢٠٢٠. آيا صوفيا / هل وصلت المنوفية إلى إسطنبول؟ القاهرة، ١٤ يوليو.

روسيا.اليوم. ٢٠٢٠. روسيا اليوم. ١٨ يوليو . تاريخ الوصول ٢٢ يوليو ، ٢٠٢٠. https://bit.ly/3iFhGOz

زكريا ، أحمد. ٢٠٢٠. وكالة أنباء تركيا. ١٠ يوليو. تاريخ الوصول ٢١ يوليو، ٢٠٢٠.

https://tr.agency/news-104591.

زيني، طه محمد. ١٩٦٩. تحقيق كتاب النهاية (الفتن والملاحم). القاهرة: دار الكتب الحديثة.

سي إن إن بالعربية . ٢٠٢٠ سي إن إن بالعربية . ١٣ يوليو . تاريخ الوصول ٢٢ يوليو ، ٢٠٢٠.

https://arabic.cnn.com/middle-east/article/2020/07/13/oman-mufto-praises-erdogan-brave-leader.

شاكر ، أحمد محمد. ٢٠٠٥. تحقيق عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير . القاهرة: دار الوفاء.

عطية، رجائي. ٢٠١٨. تجديد الفكر والخطاب الديني. القاهرة: مكتبة الشروق.

عمارة، محمد. ٢٠٠١. في المسألة القبطية: حقائق وأوهام. القاهرة: مكتبة الشروق.

عمارة، هاني. ٢٠٢٠. إشكالات فتح القسطنطينية. القاهرة، ٩ يونيو.

عمر ، سليم محمد دياب. ٢٠٠٥. الإكراه وأثره على الأهلية. القاهرة: جامعة الأزهر .

ملطي، تادرس يعقوب. ١٩٨٦. قاموس آباء الكنيسة وقديسيها. القاهرة: مكتبة القديس ديديموس الضرير.